باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيبا في المعارف وانهاضا للهمم وتشحيذا للاذهان . ولكن الصفحة انما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ويراعى في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيما كان المنزف باغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستظار على المطولة

فصل المقال

مذهب النشوء في المانيا (١)

كان لإدخال العلم في تضاعيف الأدب الفرنسوي في القرن التاسع عشر آثار ظهرت في عدة من المذاهب الفلسفية التي ذاعت منذ بداية عهد فولتير ونمت في عصر روسو وكوندورسيه . تجلت تلك المذاهب بأقصى ما وصلت اليه من التطرف في كتاب « نظام الطبيعة » الذي وضعهُ هولباخ، والذي يعتبر المثل الاعلى للتطرف في الآراء المادية نأهيك بكتاب « الانسان الآلة » وغيره من المؤلفات التي حملت على مذاهب الفلسفة التي تقدمتها حملة كان من آثارها ان تخالط العلم بالادب ليخرج من الخليط فلسفة اتخذت مذهب النشوء والارتقاء ذريعة لاثبات الفكرة المادية الفلسفية في اواخر القرن التاسع عشر ، وكان كتاب فصل المقال آخر سلسلة تلك المؤلفات التي وضعها العلامة ارنست هيكل في اللغة الالمانية ، حيث احاط فيه بجمل ما اخرج من مؤلفات أخصها كتاب تطور الانسان واسرار الكون وغرائب الحياة

الروح الغالبة في مؤلفات هيكل روح علمية بحتة . غير انهُ لم يستطع ان يذهب بتلك الروح في اقوم مذاهبها وان يحتفظ بها نقية بعيدة عن الاغراض الذاتية التي ما دخلت مباحث العلم الاَّ وافسدتها . غلبت على هيكل صورة من الفلسفة المادية اتخذت فيها مبادىء العلم ذريعة لانكار وجود الله والروح والاديان . فاتخذ هيكل من المادة الما ومن الحياة

(١) كتبت هذه المقالة بعد مطالعة كتاب فصل المقال في مذهب النشوء والارتقاء تأليف العالم هيكل وترجمة الاستاذ حسن حسين

المادية روحاً ومن الاعتقاد بالفناء دينًا . فوقف بالعلم موقف العزلة التامة عن بقية ما ابرز الفكر من منتجات . وقف به بعيداً عن الفلسفة ، حلقة الوصل بين العلم والدين ، والبسه ثوبًا من الآراء المتطرفة تعارضت في خيوطه فكرات ذاعت منذ القرن السابع عشر وربت في الثامن عشر ، وجلها الآراء التي ذاعت في القرن التاسع عشر ، بتلك الصورة التي نراها عليها في عصرنا هذا . فجاء النسيج رقعًا منها الرث البالي ومنها الجديد المبتكر . فاذا نظرت فيما رثّ منهُ ما استطعت ان تجعل هيكل الآ تلميذاً تخرج في مدارس القرن الثامن عشر ، واذا نظرت فيما جدد من العلم جعلتهُ من ائمة العلماء الذين انبتهم القرن الفارط

تخرج بهذه الفكرة اذا ما طويت آخر صحيفة من كتاب « فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء » . والحق ان صديقي حسن جبين مترجم هذا الكتاب قد قام للغة العربية بخدمة جليلة . فاني اعتقد ، ويخيل اليَّ اني اعتقد بحق ، ان الكتاب اذا نال ما هو جدير به من اقبال شبابنا المتعلمين المشتغلين بالعلم والادب احدث حركة فكرية اقل ما تترك من أثرانها تنشط فيهم قوة البحث وتنبه فيهم النزعة الى اتخاذ اساليب حديثة في التفكير والنظر في حقائق الاشياء . في الكتاب فكرات ومذاهب تعارض الخصم التقاليد التي نشأنا عليها . ولن يصيح للتقاليد من اثر نافع الآ بعد ان تهبَّ عليها اعاصير الافكار المتطرفة فتزعزعها ، ثم تضع لها اساساً جديداً تخرج منهُ التقاليد بمذاهب حديثة تسد تلك الثغرات التي تحدثها فكرات التطرف وتخلفها عصور الانقلاب

في كتاب فصل المقال صفة قلما تجدها في غيره من الكتب . في الكتاب مقدمة توافق على ما بث في الكتاب من الآراء العلمية الى حد ما ، ثم تحاول ان تنقض تلك الاسس التي شيد عليها هيكل مذهبهُ في الدين والخالق . فليس بين الكاتب والمترجم من مجانسة في الرأي الفلسفي . فصديقي مترجم الكتاب رجل شديد الاعتقاد في الله والاديان والروحانيات . وهيكل مؤلفهُ رجل ملحاد شديد النفرة من كل ما يأتي اليهِ من غير طريق الحواس . وما كان لنا ان نتورط هنا في الكلام في مذهب هيكل الفلسفي ، ولا ان نبحث في مبرراته التي تقوم في رؤوس الكثيرين من ابناء العصر الحاضر ، ولا ان نحكم فيمن استظهر على صاحبهِ في الفكرة امترجم الكتاب ام مؤلفهُ ، وكلاهما شرع في الاخذ عمن تقدمهما من اعلام الفلاسفة . فكما ان هيكل قد نزع الى فلاسفة القرن الثامن عشر يستمد منهم وحي المادة ، رجع المترجم الى اعلام الذين كتبوا في الآلهيات يستمدمنهم

وهي الاعتقاد . فالكلام في ذلك راجع الى مسألة لم يفرغ منها البحث ، وان اقتنع كل فريق بصحة مأخذه فيها

لقد كان لمثل ما كتب هيكل في مذهب النشوء والارتقاء اثر في قيام تلك المناقشات الحادة التي تروى لنا اخبارها ثلاثة العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر . فان تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم ازاء مسألة الخلق والنشوء لم يكن لها من وجود حقيقي الا من يوم ان اخرج العلامة دارون كتابهُ اصل الانواع ثم اتبعهُ بكتابهِ اصل الانسان. هبت تلك العاصفة على العلم وعلى الدين وعلى الفكر فدمغت جبين الآداب بطابع لا يزال شديد الاثر في كل ما يخرج ويخرج للناس من نواتج الافكار . ولا تزال العاصفة قائمة على اشدها بين جدران الجامعات . ومقدمة كتاب فصل المقال طرف موجز من مجمل ما نقع عليهِ من المباحث في المطبوعات الجديدة

لهذا نقول بان كتاب هيكل في لغتهِ الاصلية كتاب علمي بحت في تناعيمهِ مذهب فلسفي يؤيد المادة و ينكر وجود الله . اما في ثوبهِ العربي فكتابه احتفظ بطابعهِ الاصلي من حيث المبدأ العلمي والفكرة الفلسفية ، ومن ثم نثر من حولنا في المقدمة الوانًا من متطرف الآراء ومعتدلها في العلم والفلسفة ، ليثير غبار مسألة من اعوص المسائل التي تعالجها الافكار في العصر الحاضر

***

نرجع بعد هذا الى مقدمة الكتاب لننظر فيها نظرة نقد اعلم ان صدر صديقي لن يضيق بها . ننظر فيها نظرة تفصيل لا نظرة اجمال . فانها اجمالاً من احسن ما وقعت عليهِ من المقدمات التي يصدّر بها الكتاب والمترجمون كتبهم فهي على احاطتها بالموضوع من نواح كثيرة استعمق كاتبها الى لب الموضوع وغاص الى اعماق ما اكب عليهِ من البحث . وما كان لنا ان نجد فيها من موضع ضعف لو ان الصديق لم يفرط في الثقة اذ نقل عمن استشهد باقوالهم من العلماء ، او بترجمة من ترجم عنهم من الكتاب

واول ما نأخذهُ عليهِ في المقدمة انهُ اهمل ذكر كثير من المصادر التي استسق منها . واكبر مثال على ذلك انهُ ادمج في المقدمة ستة اسطر في الصحيفة العاشرة ، وصحيفة ١١ و١٢ و١٣ عشرة اسطر في صحيفة ١٤ من كلام العلامة بن رشد في رسالتهِ « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » من غير ان يذكر انها منقولة عن ابن رشد كما اهمل ان ينبه على المصدر الذي استقاها منهُ ، فظهرت كالرقعة البيضاء في ثوب

قاتم اللون ، او كرقعة سوداء في ثوب ناصع البياض . ولعل السبب في ذلك السهو اكثر من اي سبب آخر . فان اسلوب المقدمة كلها امتن من اسلوب تلك الرقعة ، كما اني اعتقد أن رسالة « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » من اضعف ما كتب ابن رشد إن كان قد كتبها ، ومن اسخف ما نسب اليه ان كانت منتحلة فعلاً

تناول من بعد ذلك فكرة داروين في اصل الحياة ، وقضى بان داروين يقول باحتمال ان الاحياء الاولى قد هبطت عليها نسمة الحياة من السماء (ص ١٥) في حين ان داروين قد قضى في اول الفصل الثامن من كتابه اصل الانواع الذي عقده في « الغريزة » بانهُ لن يتورط في البحث في اصل القوى العقلية ولا في اصل الحياة . وفرق ما بين من يقول هذا القول ومن يتطوح مع الاوهام الى حد القول بان نسمة الحياة قد هبطت على الاحياء الاولى من السماء !

والذي اذكرهُ ان السير وليم طمسن (اللورد كلفن بعدئذٍ) هو القائل بان الحياة هبطت على الارض من السماء محمولة على اجنحة النيازك والرجم . واذكر ايضاً ان السير طمسن قام مرة يسفه رأي الآخذين بمذهب داروين في اصل الانسان في اجتماع عقدتهُ الجمعية العلمية البريطانية . فتحداه احد نصراء داروين مذكراً اياهُ بان من يقول بان الانسان متسلسل في اقرب العصور الجيولوجية عن صورة احط من صورته الحاضرة لاقرب الى منازع العلم ممن يقول بان بزرة الحياة هبطت من السماء الى الارض في نيازك تكاد تبلغ درجة الذوبان من الحرارة

كذلك افرط صديقي في الثقة بتلك الاسطورة التي بثها الدكتور شميل في كتابه فلسفة الشر والارتقاء نقلاً عن العلامة بخنر (ص ٤٦) اذ زعم ان داروين قد قضى بان الاحياء اصلها خمسة او ستة اصول تامة الخلق . ولو قال بذلك لتقوض مذهبهُ تقوضاً تاماً . فما هو الفرق بين التسليم بخلق خمسة اصول او ستة وبين التسليم بخلق اصل واحد لكل نوع ؟ لان التسليم بالخلق مرة واحدة تسليم بمبدإ الخلق في ذاته . والحقيقة ان الامر قد التبس على بخنر وجاراهُ في ذلك الدكتور شميل ، فذاعت هذه الاسطورة على انها من دعائم مذهب داروين ، ومضى الناقدون يشيدون عليها من الافكار ويبنون عليها من النقد بما شاءت لهم اوهامهم ، غير مدركين تلك الحقيقة الاولية التي من اجلها وضع داروين كتاب اصل الانواع ، حقيقة ان الانواع متسلسل بعضها من بعض ، وان مبدأ الخلق الكامل غير صحيح

يقع اللبس في هذا الموضوع في الفصل الاول من كتاب اصل الانواع . فان دارون قد قضى بأن اصول الماشية في اوربا خمسة اصول او ستة نزحت اليها من بلاد أخرى . وهنا التبس الامر على العلامة بخنر وجاراه في ذلك دكتور شميل اسرافاً في الثقة بالنقل عن ذلك الفيلسوف المادي ، ومن هنا ذاعت تلك الاسطورة منسوبة الى دارون ، كما اذاع من قبل العلامة الافغاني اسطورة ان دارون يعتقد بان القرد اصل مباشر لنوع الانسان

نقع على قول دارون بخمسة اصول او ستة التي اعتبرها اصل الماشية الاوربية في الفصل الاول من اصل الانواع . ثم نقع في آخر الفصل الخامس عشر على فقرة أخرى يقول فيها :

« انّ في النظر الى الحياة بما يحوطها من مختلف المؤثرات والقوى ، نظرة الاعتقاد بانهُ الله قد نفخها في بضعة صور ، او صورة واحدة بداءة ذي بدء ، لعظمة وجلالاً ، وان هذا السيار ، اذ ظل مدفوعاً بالجاذبية دائراً حول فلكهِ المرسوم قد ، هيء بقوى انشأت ولا تزال جادة في انشاء ، تلك الصور غير المتناهية ، بما فيها من مواضع الجمال وبواعث الروعة والاعجاب »

وكل ما يحق لمؤيدي بخنر ان يأخذوا على دارون قولهُ « بضعة صور » . على ان القول بالتولد الذاتي نفسهِ لا ينافي القول بنشوء بضعة صور اصلية ذات غرارة مبدأ الامر لان التولد الذاتي ان صح وقوعهُ في بضعة ما من بقاع الارض ، فلماذا لا يصح ان يقع مرة أخرى او مرات عديدة ما دامت المؤثرات الطبيعية في كل البقاع التي يحدث فيها تكون متماثلة او متشابهة تشابهاً كبيراً

فاذا انتقلت من هذا الموضوع الى استكشاف هيكل لما سماهُ بالمونيرا (ص ١٦) وقعت على الفقرة التالية : « لانهم زعموا ان في ذلك (استكشاف هيكل) ما يصل بين النبات والحي . والنبات والحي هنا لا معنى لهما لان النبات حي . ولو لم تكن للمونيرا حياة نباتية او حيوانية ، وثبت انها تصبح بالخضوع لظروف ما حية ، بعد ان كانت مواتاً ، لكفى بذلك دليلاً على صحة القول بالتولد الذاتي

فاذا عبرت في المقدمة بعد ذلك بضعة صفحات وقعت على هذه العبارة (ص ٢٩) : « ان مذهب دارون انما يقوم على قوائم ثلاث — الاول التولد الذاتي — الخ . وانما اراد بذلك « التباين الفردي » فقال التولد الذاتي . في حين ان التولد الذاتي بحث في

اصل الحياة لم يعرض لهُ داروين ، وانما تكلم في التباين الفردي الذي يظهر بين افراد النوع الواحد في صفة ما من الصفات . ثم يقول — « والتباين بعضهُ معلوم والبعض الآخر مجهول » . والحقيقة على نقيض ذلك . فان التباينات التي تقع بين الافراد والانواع والاجناس وتوابعها معروفة حتى في ادق التفاصيل التشريحية وتكون اسباب التباين هي التي لم تعرف . ولو انهُ قال بان اسباب التباين بعضها معروف وبعضها مجهول لكان ادنى الى الصواب . ولو قال بان اسباب التغاير لم يعرف منها الاَّ قدر ضئيل لا يعتد بهِ لكان قد اصاب الحقيقة . ذلك لان داروين قد قضى بان جهلنا باسباب التغاير كبير ضارب في اصول الاستغلاق بقسط وافر . ولا يزال الحق في جانب هذا القول الى الآن

ثم تقع في (ص ٣٤) على ما يأتي :—

«وجميع الخلايا التناسلية واحدة في الحيوانات وفي كل النباتات معاً . وكذلك تتفق النباتات والحيوانات في الانسجة الجنينية ، وفي الادوار الاول من عهد نشوئها » . وهو كلام غير علمي . والراجح ان الكاتب اعتمد على ترجمة بعض المترجمين الذين لم يفقهوا من هذا الموضوع شيئاً ، شأن كثير ممن يتصدون الى ترجمة موضوعات لا علم لهم بمبادئها وتفاصيلها . والظن الغالب ان اصل هذه القطعة على نقيض ذلك . فهي تكون صحيحة لو ان المترجم قال فيها « والخلية التناسلية اصل الحياة في الحيوانات والنباتات معاً . وكذلك تتفق النباتات والحيوانات في ان لاجنتها انسجة حية تكونها ، وفي المرور بادوار انقلابية لدى اول عهدها بالحياة الجنينية »

ثم ترجع الى (ص ٣٥) فتجد فيها كلمة «وهو يقول» ولا تعرف اذا تصفحت المقدمة من اولها الى آخرها من هذا الذي يقول . ثم تجد في آخر الصحيفة قوله « شجرة من هذا النوع » ولو فتشت الكتاب كله بمنظار مكبر لما عرفت اي نوع من الانواع يعني . ولعله يعني نوع « الاونوثيرا » — Oenothera G — فان مباحث « دي ڤريس » قد دارت بادىء الامر حول هذا النبات ، وحول نوع او نوع منهُ يدعى « الانوثيرا لاماركيانا » Lamarckiana ومن البحث في خصائصهِ التغايرية وضع نظريتهُ المعروفة في التحول الفجائي

والراجح عندنا ان نظرية التحول الفجائي Mutation صحيحة . ولكنها لا تنطبق الاَّ على الصور الدنيا في عالمي الحيوان والنبات . فلا خلاف مطلقاً في ان الصور العليا من النباتات الزهرية وذوات الثدي من الفقاريات لا تخضع لنظرية التحول الفجائي بنسبة

خضوع الصور العضوية الدنيا . ولما كان ظهور التحولات راجع الى كثرة عدد الافراد المتولدة من نوع بعينه رجع الامر كله الى قصر الاجيال وطولها . فالحيوانات القصيرة الاجيال تنتج من الافراد عدداً اكبر جداً من العدد الذي تنتج الحيوانات الطويلة الاجيال . ولذا يكون مجال التحول في افرادها اسرع ظهوراً واجلى بياناً ، فتظهر كأنها فجائية لا تدرج فيها . وقد يكون الراجح انها تخطو نحو التحول خطوات تدريجية ، بيد انها دقيقة لا تظهر آثارها للباحث الا بعد ان يستجمع منها قدر كاف يظهر كأنهُ فجائي . والدليل على ذلك اننا لم نعثر على تحول فجائي من الحيوانات بقلب خياشيم الاسماك العليا الى رئات ، ولا اجنحة الطيور الى سواعد . بل إن التحول الفجائي مقصور على الصور الدنيا . وهذا ما يرجح عندنا صحة السبب الذي علللناهُ به

وفي (ص ٤٥) نقع على قطعة مأخوذة عن العلامة « جراييه » حاول مؤلف المقدمة ان يستدل بها على فساد مذهب داروين ومذهب لامارك فلم يصب . فقد نقل عن ذلك الاستاذ قولهُ : —

« يكفي لابطال النظرية الداروينية ان يتأمل الانسان الحشرة . فانها ظهرت في اقدم عصور الحياة الارضية . وثبتت انواعها في جميع الاحوال فهي تناقض ما ذهبوا اليهِ من التحولات المستمرة البطيئة ، وتناقض التطور بفعل العوامل الخارجية . فانها تنقلب داخل الشرنقة من حال الدودية الى حشرة طائرة ولا تأثير لشيء عليها من الخارج . كما ان الهوة عميقة بين الحال الاولى — وهي الدودية والحال الثانية وهي الحشرة وهي هوة تضيع فيها ولا كرامة جميع النظريات الداروينية واللامركية . فالحشرة ادت شهادة حسنة لبطلان مذهب داروين ، كما اثبت عجزه في تفسير غرائزها الاولية العجيبة المحيرة للعقل »

وهذه العبارة بعيدة عن حقائق العلم ، على ما فيها من الاضطراب . فان الحشرة إذ تكون دودة ثم تنقلب حشرة دليل ثابت على التحول لا على ما يناقضهُ . وما الحالة الدودية في الحشرات الا دور انقلابي من أدوار تكوينها الجنيني يدل على ان الحشرات الطائرة اصلها ديدان . ولك في ذلك اسوة بالحيوانات العليا إذ تتشابه اجنتها في اول عهدها بالانقلاب الجنيني اذ تشابه حيوانات حقيرة انقرضت منذ ابعد العصور . ولعمرك ان كانت الهوة عميقة بين الحشرة والدودة ، افليست هي اعمق بين جنين الانسان في الاسبوع الاول إذ هو مضغة ، وبين ارسطو وافلاطون ولنكن ؟

على ان في المقدمة مواضع أخرى للنقد وكلمات عليلة محرفة عن مواضعها علمًا ولغة . ولكننا نقف عند هذا الحد راجين ان يتدارکها المترجم في الطبعة الثانية التي نرجو أن تظهر قريبًا بعد ان يستنفد النشاط الادبي الذي لاحت بوادرهُ في السنوات الخمس الاخيرة طبعة الكتاب الاولى

***

لما نشرت الجزء الاول من كتاب اصل الانواع في اللغة العربية صدَّرت لهُ بمقدمة اثبت فيها على اقوال العرب في النشوء ، كما فعل صديقي في مقدمتهِ التي قدم بها لكتاب فصل المقال فتناول المقتطف الكلام في ذلك ومما أثبت بهِ قولهُ : «وحبذا لو نبه (المترجم) على ان اكثر ما قيل قبل دارون ولامارك وصفي لا تعليلي . قيل ان بعضهم ارى اتاسيز العالم الطبيعي كتابًا فيهِ صور كثير من الاسماك وفيهِ وصف مسهب لها . وكان اغاسيز قد تعلم الانجليزية بعد مهاجرتهِ الى امريكا ، ولكنهُ كان يلفظها كالفرنسوية فقال هذا حسن ولكنهُ وصفي «دسكريبتيف» لا مقابلة فيهِ «كومبراتيف» ولفظ الكلمتين كما يلفظها الفرنسويون يجري قولهُ مثلاً وهذا ينطبق على كل ما قالهُ الاقدمون في نشوء الانواع »

وإن كان قد فاتني ان انبه على ذلك في الطبعة الاولى من كتاب اصل الانواع ، كما فات صديقي ان ينبه عليهِ في مقدمة كتاب فصل المقال ، فلا اقل من ان انبه على ذلك في هذه الفرصة ، بالاصالة عن نفسي و بالنيابة عن صديقي ، شاكرين للمقتطف عنايتهُ وحسن بيانهِ

اسماعيل مظهر

احسن تاريخ لسورية

قرأت في مقتطف مايو (ايار) الماضي سؤالاً وجه الى ادارتهِ حول تاريخ لسورية فاستحسنت الادارة الظن فيَّ وجعلتني ثالث الذين يؤخذ رأيهم بهذا الشأن . فعلى قصر باعي اجيب شاكرًا

لا يخفى ان كثيرين اشتغلوا بتاريخ سورية قديمًا وحديثًا وبعضهم لم يفردوهُ بالتسمية او ضمَّوهُ تاريخ الشام او دمشق او لبنان وتوسعوا بهِ توسعًا كافيًا والآخرون صرَّحوا بتسمية تاريخ سورية وبحثوا فيهِ بحثًا مطولاً ومنهم الاستاذ جرجي بني والمرحومان الدكتور الياس بك مطر والمطران يوسف الدبس في مطولهِ ومختصرهِ . وجاء بعدهم من وضع تواريخ لذلك باللغات الافرنجية مثل تشرتسل بك الانكليزي وبورتر الاميركي

وبعض علماء الالمان والفرنسيين وبينهم بعض الوطنيين وفي اثناء الحرب عيّنت لتاريخ سورية لجان في دمشق وبيروت ولبنان فظهر من اعمالها (كتاب لبنان ومقاطعاتهُ) [١] وجزآن من ولاية بيروت [٢] واما تاريخ سورية فبقي تحت العمل ثم اهمل امرهُ . وتعيين لجان لمثل هذه الاعمال ممن عرفوا باختصاصهم هو خطوة جديدة في تمحيص تاريخنا بالنظر في فلسفته اي تعليل الحوادث وتحقيق رواياتهِ اي نقدها و بيان صوابها من خطإها

ومما عرفتهُ انهُ في سنة ١٩٢٠ كان يشتغل من الآباء اليسوعيين في بيروت ثلاثة في تاريخ سورية توازعوا اعمالهم هكذا :

(١) العهد الآرامي والفينيقي اسند تأليفهُ الى الاب سبتيان رونزفال
(٢) « اليوناني والروماني « « « لويس جلبرت
(٣) « العربي « « « هنري لامنس

وقد اشتغلوا بذلك معتمدين على مصادر كثيرة . ولكن لم يظهر من تلك الاعمال الاَّ جزآن في تاريخ سورية باللغة الفرنسية للاب لامنس

والآن يطبع كتاب (خطط الشام) للصديق الاستاذ محمد كردعلي مدير المجمع العلمي ولعل فيها الضالة المنشودة

وظهر بالافرنسية من بعض تلك الكتب المتعلقة بسورية كتاب (سورية التجارية ومستقبلها) للسيو جولي مدير المصلحة التجارية الفرنسية في سورية وكيليكية . و(سورية الغد) للمرحوم ندره حبيب المطران . وغير ذلك مما لا يحضرني اسمهُ

وليس مقامي الآن مقام انتقاد التواريخ المنشورة عن هذه البلاد الطيبة وانما كلامي في (احسن تاريخ لها) حسب الاقتراح فلهذا اقول كما قلتُ وعلى هُدًى في ما أرى :

ماذا ينقص تاريخنا

كان القدماء يعتمدون في تواريخهم على الروايات ثم المنقولات المدوَّنة وقلَّ من نظر في تعديلها وتجريحها منهم مما عرف مؤخراً بفلسفة التاريخ او تقدم الى ان كانت

---

(١) وزعت ابحاث هذا الكتاب على كثيرين من الاختصاصيين وكنت ممن أسعدني الحظ بانتدابي لموضوعين فيه (الاخلاق والعادات) و (آداب الفينائيين . وقد كتبت عنه مقالة مطولة بينت فيها كل بحث وكاتبه ونشرتها في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق

(٢) وضع هذا الكتاب محمد بهجة بك المدير الثاني للمدرسة السلطانية في بيروت ورفيق الندي التميمي مدير المدرسة التجارية فيها وفي الجزء الثالث منه غير منشور وهو في ولاية بيروت الوسطى

النهضة الحديثة فنبغ عند الافرنج من دوّن التواريخ ناظراً في تعليل حوادثها وتطبيقها على ما يوافق العقل والعلم والذوق والزمان والمكان ونحوها

ومما أراهُ من النقص في ما نشر من تواريخنا حتى الآن هو عدم تعليل الحوادث والرضى بالنقل على العلّات دون ابداء رأي او تمحيص قول ولعلّ ذلك ناتج عن الجمود الذي اعترانا او عن الاهمال وعدم البحث في الاوراق القديمة او النظر في الاسباب التي تتقدم الحوادث وقرنها بما يوافقها او يصححها . ولا اخطىء اذا قلت ان اهم تلك الاسباب هو الخوف من الحكومة ومصادرتها وشدة عقابها فتركنا الامور على ظواهرها لا بل اضطررنا احياناً الى المصانعة والمواربة والمداهنة استرضاءً وتقادياً مما يحدث فوقع التقصير في تواريخنا. وهناك سبب آخر هو الرشوة الادبية فكثيراً ما عرفت ان بعضهم دفع مبلغاً لمؤلف ليسكت عن عيوبه او ليمدحهُ او ينصانعهُ وما شاكل . فالمعذرة من كل هذا التصريح لأنهُ محل نظر وتدقيق بعد ان ارتفع الضغط عن الافكار وانتشرت حرية القول بين الناس

ومن امثلة ذلك التقصير في التعليل عن الحوادث (فتح سورية) على يد السلطان سليم العثماني ثم (فتح مصر) على اثر ذلك. فترى المؤرخين عندما أكتفوا بأنهُ فتح بلاد العجم وبينما كان يدبر شؤونها ويرتب حكومتها ويهيىء ادارتها اذا هو يهاجم سورية فمصر فكيف يقتنع العقل انهُ قبل ان يتمكن كل التمكن من بلاد فتحها ينتقل الى غيرها وهي سحيقة في بعدها عنها ولا علاقة لها بها

ونحن من عرف ان السلطان سليماً كان يحارب الشيعة في العجم لانهُ كان شديد التمسك بالسنة كثير الكره لغيرها ادرك ان امراً من ذلك القبيل فاجأهُ حتى انتقل بسرعة من قطر الى قطر وبينهما آلاف الاميال

وسرُّ ذلك ان فريقاً من الشيعة في سورية مالأوا سرًّا العجم وهم يمتون اليهم بالمذهب والمبدأ والاصول فربطوا طريق القوافل على السلطان فتضايق جنودهُ من جرّاء ذلك لقلة المؤن والذخائر التي كانت ترد اليهم من القسطنطينية بطريق آسية الصغرى . ولما بحث السلطان عن السبب عرف ان فئات من الشيعة في سورية فعلت ذلك مساعدة للعجم لما بينهما من الأواخي . فاستعد من فوره لمهاجمة سورية وفتحها ثم فتح مصر مقر ملوك الشراكسة كما هو معلوم. فهل بعد هذه الاسباب يرتاب المطالع في ذلك الفتح وسرعة تنقلهِ من قطر الى آخر

وعندي مثال آخر اقرب عهداً من ذاك وهو ان كثيرين ذكروا ان الامير بشيراً

الشهابي الكبير كان يتيماً وفقيراً فربي عند ابن عمهِ الامير يوسف ثم جاء وقت صار فيهِ الامير بشير يقول للامير يوسف وقد انتدبهُ لغارة بينهُ وبين الجزار : « اخشى ان اذهب ابنك واعود ابن الجزار » ونحن نعلم ان الجزار كان شديد الطمع محبًّا للمال فكيف تسنّى للامير بشير الفقير أن ينال الحظوة لديهِ بدون تلك الرابطة القوية التي لم نجد اشارة الى تأمينهِ عليها بكفالة ونحوها . ولقد بقيت في ريبة من ذلك الاسترضاء واسبابهِ الى أن عرفتهُ فطابت نفسي بهِ وارتاح بالي اليهِ

وتفصيل الخبر انني وقفت اخيراً على (مفكرات المرحوم رستم باز) والد القانوني الشهير المرحوم سليم بك باز والصديق الحميم الدكتور جرجي بك باز وهي بخط واضعها ولغتهِ العامية وفيها تفاصيل كثيرة عن الامير بشير وقتل بعض بني باز وذهاب الامير الى مصر وارتباطهِ مع محمد علي باشا وحروب ابرهيم باشا المصري في سورية وانتقال الامير بشير الى مالطة والاستانة وما جرى لهُ فيهما كل ذلك كان كلام من رأى رأي العين وسمع سمع الاذن تلك الحوادث ودوّنها بحسب طلب ولدهِ الدكتور الذي تكرم باعارتي اياها واستنساخها (١) . لانني رأيتُ فيها ما رأيتُ من التعليلات التي لم يتنبه اليها مؤرخونا ولا اعاروها أقل اهتمام بل اكتفوا بما روي لهم او عرفوهُ دون معرفة الاسباب والبحث عن العلل . ولهذا اورد منها حادثة الامير بشير وتمكنهِ من اخذ الحكم من عمهِ الامير يوسف مع فقرهِ وهذا نصها بالحرف الواحد بلغتها العامية :

« وفي تلك الاثناء توفي الامير بشير في حاصبيا وكان ذا غنى وافر من النقود والاملاك وليس لهُ ولد . وكان اقرب الناس اليهِ الامير يوسف . فاراد الامير ارسال جرجس باز الى حاصبيا لضبط التركة . الشيخ غندور (٢) ما رضي قال للامير ان تركة كبيرة لا بد من قيل وقال . فلا ارضى لابن عمتي بمس شيء يوجب تكدير خاطرك . فالاوفق ارسال الامير بشير . فاستحسن ذلك وارسلهُ

« فنقول ان الله اذا رضي بسعد انسان تفتح لهُ الابواب . فكانت هذه البعثة اسعادة الامير بشير فلما وصل الى حاصبيا وبدا بالشغل طلّت زوجة المتوفى من باب الغرفة ونظرت

(١) واستنسخها عني الاستاذ أسعد افندي رستم مدرس التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت مع أوراق تتعلق بأبرهيم باشا والامير بشير في سورية

(٢) يريد الشيخ غندور السعد من رشميا (لبنان) جد حبيب باشا السعد واخوته

الامير بشير فاعجبها ، فقالت يا بشير ألا تضبطني مع التركة . وتبقى لي اسم بشير فاما هوه قال لها اسمي يا حبوس . فقال في قلبه هذه غنيمة باردة

«وارسل مع قسيس يقول لها : اذا كانت تصير مثله نصرانية فهو يجيبها الى مرغوبها. فقبلت وعمدها القسيس سرًّا وتعاهدوا . وقيل انهُ تصلّى عليها سرًّا . وترك لها من التركة مال وافر . عدا الذي كانت اخفتهُ . وكانت جميلة الخلقة والاخلاق فتية وولدت للامير بشير ثلاث اولاد قاسم وخليل وامين . ثم الامير بشير رجع لعند الامير يوسف مع المال

«وفي تلك الوقت طلب الجزار من الامير يوسف ارسال احد اولاده وليكون وهو عندهُ. وحيث كانوا اولادهُ قاصرين عزم على ارسال الامير بشير . فاخبرهُ بذلك. أجابهُ الامير بشير انا تحت أمرك (ولاكن ينزل الى عكا ابنك يرجع منها ابن الجزار) . ففحك الامير يوسف . وقال لهُ . لا فرق بيني وبينك ثم جهزهُ بالمال لمصروفهِ . وأمر فارس ناصيف الذي هو من خدامين الامير يوسف ورجل آخر ليكونوا بخدمة الامير بشير ما دامهُ بالرهن. وودعوا الامير وتوجهوا إلى عكا . وقدموا للجزار مكاتيب الامير يوسف. فأمر بانزالهم في محل لايق مع تقديم الاكل والشرب وخلافهُ »

هذان مثالان من قصص توار يخنا في تعليل الحوادث . ولهذا نحن اليوم بحاجة الى تاريخ يجب أن تعين لهُ لجنة من الاختصاصيين تقف على الاوراق والاخبار القديمة وتعلل بدقة اسباب الفتوح والحروب مع ما هنالك من الوقوف على علوم الآثار القديمة والاساطير وما شاكل مما يعزز التاريخ ويخصهُ والله من وراء حسن القصد

دمشق عيسى اسكندر المعلوف

[المقتطف] رأي الاستاذ معلوف وجيه جدًّا لتأليف تاريخ مسهب شامل ولكن الكتابة طلبت كتابًا للتدريس في المدارس العالية . وهذا لا يحسن أن تزيد صفحاتهُ على ٣٠٠ صفحة بقطع المقتطف أو ٤٠٠ بقطع تاريخ جرجي افندي يني

تاريخ سورية

سيدي العلامة المفضال رئيس تحرير المقتطف الاغر

اطلعت في الصفحة « ٥٥٩ » من الجزء الخامس المجلد « ٦٦ » من محتكم الغراء على سؤال احدى معلمات مدرسة البنات الاميركية في بيروت عن كتاب لتاريخ سورية يصلح ان يدرس في صفوف مدرسة عالية . ولما كنت بدأت بتأليف مثل هذا الكتاب

منذ ثلاث سنين بعد ما وقفت على كل ما كتب ونشر عن تاريخ سورية في اللغات العربية والفرنسية والتركية ، فضلاً عن مشاهدتي بكافة الاماكن التاريخية والتدقيق في آثارها والمطابقة بين ما كتبهُ غيري من المؤرخين عنها وما يقابلها اليوم من المواقع ، وذلك اثناء رحلتي الجغرافية التي قمت بها في العام الماضي في انحاء سورية من حدود الاناضول حتى الحدود الحجازية والمصرية توسيعاً للطبعة الثانية من كتابي (جغرافية سورية العمومية المفصلة) . ولما كنت قد عزمت على انهاء طبع هذا الكتاب التاريخي قبل ابتداء السنة المدرسية المقبلة جئت بكلمتي هذه مُلمّاً اليه . واليكم بعض خواصهِ : الكتاب مؤلف من ثلاثة اجزاء ، يبحث الاول منها عن تاريخ سورية منذ اوائل التاريخ حتى الفتح العربي الاسلامي ، والثاني من الفتح العربي حتى دخول العثمانيين ، والثالث من دخول العثمانيين الى يومنا هذا . وسيكون كثير الخرائط الحاوية لتقسيمات سورية واسماء مدنها القديمة في زمن كل امة من الامم التي تقلبت عليها مع ما يقابلها من الاسماء الحاضرة و بيان طرق غزوات كل من تلك الامم فضلاً عن الخرائط التي تمثل وضعية بعض المدن القديمة وعن الرسوم الكثيرة لمعظم الاشخاص والمعبودات والآثار والمواقع التاريخية التي ذكرت في هذا التاريخ . وسأتقدم قبلهُ ايضاً بمختصر يكون تمهيداً لهُ في الصفوف الابتدائية . هذا ما اردت بيانه في هذه العجالة وتفضلوا بقبول فائق احترامي

صيدا سعيد الصباغ

دفع التباس

اجبتم على سؤالي « التمدد والبرد » المدرج في الجزء الرابع من هذه السنة صفحة ١٦٧ و١٦٨ « بان الماء خُصَّ بالذكر لان الكلام كان خاصاً بالثلج الخ » فكان هذا التخصيص سبباً في التعقيد كما كان تخصيصي في معلومية فؤاد افندي سبباً للتعقيد وسوء التفاهم حتى ظننتم اني اسألكم ان كان فؤاد افندي يعرف هذا ام لا مع اني اقصد (بمعلوميته) الجملة الواردة في المقتطف فقط غير متعرض لما يعرفهُ اولما لا يعرفهُ وقد ذكرت الجملة كي لا يبقى التباس ولاننا نعتقد ان كلام المقتطف ثقة مدقق فيهِ كالكتب العلمية المدرسية ان لم يكن اكثر منها

دير الشوير حنا ديب شيخاني